

المقالة التاسعة والعشرون^١

في الضجر من العبادة

رب المجد يقول : أدخلوا من الباب الضيق فإن الطريقة المؤدية للهلاك عريضة واسعة وكثيرون هم السائرون فيها وما أضيق وأضغط الطريقة المؤدية إلي الحياة الأبدية وقليلون هم الذين يجدونها . فمن هو الذي قد وجدها فيخبرنا بطريقها ؟ القديسون كلهم . الطريق التي سعى فيها جرياً الإناء المصطفى بولس وأكمل سعيه وأخذ الإكليل فذاك يصف لنا مسلكها فيقول : في كافة الأشياء فلنثب ذاتنا كخدام الله بصبر كثير ، بغموم ، بشدائد ، بضيقات ، بإنزعاجات ، بأتعاب ، بأسهار ، بأصوام ، بطهارة ، بمعرفة ، بطول أناة ، بخيرية ، بروح نقي ، بمحبة لا رياء فيها ، بقول صادق ، بقوة الله ، بأسلحة العدل اليمينية واليسارية ، بشرف وهوان ، بمذمة ومديح ، كمضلين ونحن محقون ، كمجهولين ونحن معروفون ، كمائتين ونحن أحياء ، وكمؤدبين ونحن غير مقتولين ، كحزاني ونحن مسرورون دائماً ، كمساكين ونحن نغني كثيرين ، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء .

فمنذ الآن يا أختي لنتمسك نحن بهذه الطريقة التي تجندنا لها إلي النهاية . إن كنت ساكتاً تفكر في المحبوسين في السجن الذين ليس محبوسين فقط بل وفي أعناقهم الحديد ، وآخرين في أيديهم الخشب ، تفكر في رعاة الغنم أية معاطب يحتملوها في البراري والجبال وفي الشتاء يعذبون من البرد وفي الصيف تحرقهم الشمس .

إن كنت في كنوبيون أخطر ببالك الفصل المكتوب وكان لجماعة الذين آمنوا قلباً واحداً ونفساً واحدة ولم يقل أحدهم عن شيء من موجوداتهم أنه له خاص بل كانت لهم الأشياء كلها مشتركة مشاعة، إن كنت تعمل الضفيرة تفكر في السائرين في البحر فإنهم يكابدون شدة البحر ويعملون هذه الصنعة نفسها ، إن كنت تعمل الزنابيل الصغار فأفكر في عاملي أشباك صيد السمك ، إن كنت ناسخ الكتب فأفكر في نحاتي الحجارة . لا تعوج معاني الأقوال الإلهية المكتوبة بأمانة وحق لأن أي خطيئة أعظم من هذه أن تجعل المر حلواً والحو مرأاً والنور ظلمة والظلمة نوراً لتضل الذين يقرأون، الويل لمن يعمل هذه الأشياء فإنه يصنع للنفوس شكوكاً .

إن كنت تخطط فأفكر في الذين يقدون السيور ، إن كنت تعمل الحصر فأفكر في الذين ينشرون الرخام ، إن كنت تعمل الأطباق المنقوشة أفكر في عمل القنب ، أو تعمل الأطباق الساذجة أفكر في عمال هذه الصنعة العالميين ، أو تغزل القنب والصوف أفكر في عاملي السراذقات ، أو تعمل الكتان أفكر في دفاقين الكتان ، أو تنسج ثياب الكتان أفكر في القزازين ، إن كنت خبازاً أفكر في الشرط والأعوان ، إن كنت في البستان فتذكر القصارين الذين يلمسون الماء في الشتاء كما يلمسونه في الصيف أو في المطبخ فأفكر في الصباغين والحدادين الذين يسهرون الليل كالنهار خاضعين للسلطان ويتقون فيصبرون ويعنتهم الرؤساء فلا يتوانون في صناعتهم .

إن كنت بواباً أفكر في غلمان الرؤساء الأرضيين أو خادماً أو أقنوماً أو رئيساً فتذكر القائل :
أطلب إلي القسوس الذين فيكم أنا القس رفيقهم وشاهد آلام المسيح وشريك المجد العتيد استعلانه أن ترعو الرعية التي فيكم مراقبين لله ، لا بالزام وأستكراه بل بالاختيار من الله ، لا لإبتغاء ربح قبيح

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس في بريا الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

بل بنشاط ، لا كمن يستولي علي الأنصبه بل صيروا رسوماً وقذوة للرعية فإذا ظهر رئيس الرعاة تأخذون الإكليل الذي لا يضمحل .

في كل ما تعمل وتضجر فيه أفنكر في صناعة تماثله فتقاوم المصارع ، وكل ما تعمل بفكر أو بكلام فليكن لك الضمير شاهداً أن الشئ الصائر هو من أجل الله فتخلص . أطلب إليك أن تقول هذا ، إن جددت نعمة الله الذي دعاك إلي ملكه الأبدى ومجده وذهبت إلي العالم ، ماذا تزمع أن تعمل كما يخطر لك فكرك ؟ بل ماذا خطر لك محارب نفوسنا ؟ إن أنكرت النعمة المعطاة لك أتصير ملكاً ، وإن تملك الملك ألا يقتلك الموت ، وإن ورثت نعمة جزيلة وجمعت غنى كثيراً ألا تخلف تلك كلها لآخرين وتنصرف من هنا مجرداً كما يقول الرسول : ما جئنا إلي العالم بشئ ومن الواضح أننا لا يمكننا أن نخرج منه بشئ ومن يزرع في الروح من الروح يحصد حياة أبدية .

أقول لك أيها الأخ كما يليق بإنسان إن تركت نعمة الرب فلا تترك النعمة الأولى التي كانت لك قبل إبتدائك بسيرة العبادة بل جيرانك وأصدقائك وأهلك وأنسابك يحسبونك مثل مخالف وناكت قائلين من ذا ألزمك وأضطرك أن تبتدأ بعمل لا تستطيع أن تكمله ، مكتوب في الناموس من كان مرعوباً وجبان القلب لا يخرج إلي الحرب بل فليرجع إلي بيته لئلا يجزع قلب أخيه ، فالآن ما بدأت به تتمه فإن تقدمت وسقطت فلا تستقر في الهفوة بل عد إلي الرب لأنه في السماء موجود من يحو خطايا الراجعين إليه ، لا تتنازل مطابقاً بسوء التمييز لأن الليوث والتنانين لا تستطيع أن تضر كما يضر سوء التمييز للمذعنين له لأن كثيرين من الناس لما أبعثوا سوء التمييز ولم يشاركون أصنافه بجلوا من الأعاجم وخجلت منهم الأسود والتنانين ، ولم يقدر لهيب النار أن يلهب رؤوسهم لأنه لم توجد فيهم رذيلة بل الصلاح والخيرية ،

فأما سوء التمييز فيقطع فضائل النفس قطعاً لا رحمة فيه لأنه لا توجد رذيلة بغير أن تكون أمها سوء التمييز لأن محبة الفضة قد استبان أنها أصل كافة الشرور فذلك الأصل غرس في كرمه سوء التمييز لأن هذه تغذي وتنمي كرمه الرذيلة لأن أصعب خبث منها في العالم فإنها تجعل عشاقها يدفعون إلي الأسر وتصيرهم هزءً لأن المنافق يهرب من غير أن يكده أحد فيذل في ققص أما المضبوط من سوء التمييز فلا يعذب من أيدي الأعاجم ولا في الغربية بل حيث ولد وتربى يعذبه أبناء جنسه وقبيلته ولا يستشفع فيه أحد ، وعذابه بالجهر لا بالسر لا عن عمل صالح بل عن عمل سوء التمييز ، وكافة الناس يدينون الواقعين في هذا الشر ، وإن احتجوا ليس من يعينهم أو ينفذهم ، إن أتبع سوء التمييز فسيحدرك إلي مطابق الجحيم لأنه حطم الأقوياء ودمر المنازل وزعزع قواعد الملوك وأسقطهم من شرفهم .

أيها الحبيب الأخ أبتعد عن هذا الألم أبتعد جداً لا تتقيد بقيوده فإن قيوده قيود من حديد وكبوله من نحاس قد طرح من أحبوه ، وأذلهم وصار لهم في هذه الحياة سقطة مذهلة وبعد الوفاة هلاكاً دائماً وما هو أسمه سوى سوء المعقول ، رداة التمييز ييغض الحق ويحب الكذب لا يقبل أديباً ويسر بعدم الأدب ، لا يقبل التوبيخ وي طرح الوعظ ، يربي اللذات يتهاون بالله ولا يخجل من الناس ، بدؤه عدم المخافة من الله ونهايته الهلاك .

أيها الرب ربنا يا من فتحت عيني الأعمى منذ مولدة أفتح نظر ذهننا لئلا نسقط في وهق هذا الألم ، لا تنكر أيها الحبيب نعمة الله أما قد علمت أن فرحاً عظيماً يصير في السماء بخاطي واحد يتوب أكثر من الفرح بتسعة وتسعين صديقاً لم يضلوا ولم يحتاجوا إلي توبة .

أيها الحبيب ما حزن هذا الدهر وما هو سروره ، الأفضل أن نصبر علي الأحزان العارضة لنا من الاغترار بالطغيان لأن شرف هذا العالم وطغيانه يضاهايان لهيب النار التي تأكل الحطب المنضد وللوقت ينطفئ ، ولهيبها الذي كان مقداره عظيماً أنتهى إلي شرار ورماد أما من يحتمل من أجل الله يضاهاى من بني منزله علي الصخرة .

فلذلك أطلب إليك أيها الأخ أن تستفيق لدى الرب وتذكر موقف الإله الذي لا عفو منه والدينونة الدهرية وطبيعتنا الضعيفة ، ماذا يكون أحقر من الناموسة ؟ وهل تستطيع أن تحتمل طنينها؟ فماذا تصنع بالدود الناقت السم الذي لا يرقد ؟

إذا صار المساء نقول فُذ السراج فإنه وقت الظلمة ، فماذا نصنع بتلك الظلمة المدلهمة الفاقدة الضوء؟ إذا أحتر أحد من شعاع الشمس يهرب إلي الظل ، فماذا نصنع بنار جهنم التي لا تطفئ ؟ .

فلنأخذ يا أختي الأحباء نودجاً لتلك الدينونة من الأمور المنظورة في هذا الدهر ، إن عمل أحد طلاحاً وعُرفَ وأرسله رؤساء هذا الدهر إلي الحبس فإن خزي وحزن يشملان نفسه ومع ذلك ربما يخدمه أهله ويلطفه أنسابؤه ويسليه أصدقائه ويتعاهده معارفه متواتراً فيتعزى بهذه الأشياء إذ لا يبتعد عنه الاهتمام وعند نهاية الأمر يسعى الأصدقاء في تخليصه ، أو يبذل الأموال ، أو يترجى أحداً لعله ينقذه من الحبس .

فأما هناك فالمسجون من تلقاء أعماله لا يجد من يعزيه ، ولا أب يسعى في تخليصه ، ولا أم تجالسه فتسليه ، ولا ملاطفة امرأة وأصدقاء ، ولا خبر صالح ، ولا سماع سلامة ، ولا نور ، ولا صوت طير يغرد ، ولا تغير الأحوال ، ولا استحالة الأوقات ، ولا نعمة الموسيقى ، ولا السرور . لأن هذه كلها تنتزع من المناقين .

أما حظهم فبعكس ذلك كما كتب أنه يمطر علي الخاطئين فحاخاً وناراً وكبريتاً ورياح عاصفة هذه حظ كأسهم ، فلنطلب إلي الرب من كل أنفسنا أن يسترنا في تلك الساعة المرهوبة فإنه يسر بالمتخلصين وقد أعد لهم الخيرات التي لم ترها عين ولم تسمعها أذن ولا تخطر علي قلب إنسان .

تذكر هذه وعد إلي الرب ، لا تصر كفأس في يد المحال تقطع الغروس المثمرة ، ولا كريح الشوب تفسد الأثمار الحسنة ، أيها الحبيب أما تعلم إن جُرح أحد وسقط في مصاف الحرب يرعب المحاربين معه وإن تسلح وتجلد وأنقض بشهامة علي المضادين يستنهض بنشاطه الكسالى والعاجزين والضعفاء ، أيها الحبيب تذكر أي تخشع كان لك حين بدأت بالعبادة ! فأين إذاً التخشع المملوء دموماً ؟ أين الشوق السماوي والتورع الجميل الفاقد الرياء ؟ أين التواضع الرافع إلي السموات ؟ أين السكوت المملوء باطنه من الصلوات ؟ أين صيانة العينين المطهرة الأفكار ؟ أين المحبة المستشفعة الإله ؟ فإذا أبغضت هذه وأقصيتها فماذا تراك تقتني سوى سخطاً غضباً صراخاً وأقترأ اسرافاً وفماً لا يلجم .

أه كيف صارت الأرض المثمرة سبخة من رذيلة القاتنين فيها ، أهذه هي الأقوال التي عاهدت الله أن تخدمه بها في أحزانك ، تبصر يا أخي لئلا الذي يؤذيك ويحرص أن يفصلك من الأخوة يصير لك سبب الموت المر والخزي ، وأقول بالصدق إنني أعرف واحداً أو اثنين أو ثلاثة أخوة تنحوا من الدير وساروا بالسيرة العالمية أيضاً ، ولم يطل عمرهم في العالم بل ماتوا مواته شنعاء .

فلذلك أطلب إليك أيها الأخ أن تقاوم الشهوة ولا تتنازل وتطابق الذين يرومون أن يقتصوك سريعاً بل فليكن عقلنا أيها الحبيب فوقاً ونرفع أيدينا إلي السماء مثل موسى والرب يحارب عن ضعفنا ، فلا تخش من وجوههم فلربما خطروا لك وطرحوا عليك مرض الجسد وعدم اشتهاء المعدة وتهمة من هو أعظم منك ، وطول الزمان والسيرة الأولى أو ذكر الوالدين بالجسد وأضرموا هذه ليحاصروا نفسك فأفكر في إذا كان ابن يعمل الشر فالشرائع تعذبه بحضرة والديه ولا يقدر أحد أن ينقذه من أيدي المعذبين .

فكم تظن بالحري مجلس القضاء المنتظر حيث الملوك والأمراء والأغنياء والفقراء يقفون ويشتملهم خوف صعب .

أيها الحبيب عد إلي ذاتك ولا تنهون بالقاضي المقسط والذي لا يعتد بأحد ولا تستخف باللهيب الذي لا يخدم ألبنة فإن تهاونت فأمتحن الأمر من هنا إن كنت تستطيع مرارة النار وعذابها ،

قَدْ سراجاً وضع فيه طرف إصبعك إن استطعت أن تحتمل وجع الحرارة يمكنك أن تعين نفسك هناك، لكن إن كانت جملة جسمك من خارج النار ولا يمكنك احتمال وجع العضو الصغير، فماذا تعمل إذا طرح الجسم بكليته في جهنم النار، لكن عسى أحد الجهال يقول أنا جئت لأصبر لكن ماذا أصنع فإني ضعيف وصغير النفس لأنه لو شاء الله أن أخلص لكان أعطاني صبراً .

تعالوا يا أخوتي فأبصروا نفس مستأسرة لا من الأعاجم والسيوف بل من سوء التمييز تتعلل محتجة بالإله الصالح المرید أن كافة الناس يخلصون وإلي معرفة الحق يقبلون، الذي صبر من أجلنا علي الصليب الذي يستدعي قائلًا: تعالوا إلي يا كافة المتعوبين والموقرين فأنا أريحكم احموا نيري عليكم وتعلموا مني فإني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم فإن نيري صالح ووقري خفيف، اسألوا فتعطوا، اطلبوا فتجدوا، ومن يقرع يفتح له فكيف تقول إذاً لو شاء الله أن أخلص لكان أعطاني صبراً، لِمَ يطغيك العدو وتحتمل مشورته، لِمَ تحتمل مثل هذه الخسارة فتخلع عنك حلة المجد وتتفصل من سيرة الملائكة وتتمرغ في آلام الهوان، مالك وهذه الفضيحة كيف تحتمل مثل هذا العار أن تسمع أنك شالح وجاحد نعمة الله، مالك ولهذا الموت أن تبصر ذاتك ملقى في الظلمة القصوى حاملاً أثمار الخزي والأخوة الصابرين في خلاص الرب والمكليلين في سرور ربهم، إلي أين تستطيع أن تهرب أو أي موضع يقبلك هارباً من وجه الرب الذي تريد أن تنكروا وتغدر به .

فلذلك أطلب إليك أن تصبر لئلا يوافي إليك المكتوب لقد كان الأصلح لهم ألا يعرفوا طريق العدل أفضل من أنهم بعد ما عرفوا يرتدون عن الوصية المقدسة التي دفعت إليهم وقد أصابهم المثل المحق كلب يعود إلي قينته وخنزير يتمرغ في مراغة الحمأة، فليخطر بذهنك أيها الحبيب أننا في هذا العالم غرباء ونزلاء وكثيرون نهضوا بالغدوة فلم يدركوا المساء، وآخرون ناموا مساءً فلم يدركوا البكرة . أسمع القائل الإنسان يضاهي الأمر الباطل وأيامه تعبر كعبور الظل .

أطلب إليك أيها الأخ الحبيب أن تتصبر قليلاً فإن من يصبر إلي الغاية يخلص لأنه لا يعلم أحد إن كان حضر أو انصرافنا من أجل هذا تتكاثر علينا التجارب فلا نسأم ولا نرجع إلي ورائنا بل الأولى أن ننسى الأمور التي وراء و نمتد إلي ما قدام لندخل مع الختن قبل أن يغلق الباب لأنه قيل تيقظوا وصلوا فإنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة .

وقد قال المخلص أيضاً : كما كان في أيام نوح هكذا يكون ورود ابن البشر لأنه كما كان في أيام الطوفان يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون إلي اليوم الذي دخل فيه نوح إلي السفينة وجاء الطوفان وأهلك كافة كذلك كما صار في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبتاعون ويبيعون ويغرسون ويبنون إلي اليوم الذي خرج فيه لوط من سدوم أمطر الرب النار من السماء وأهلك الجماعة قاطبة .

نظير هذه يكون اليوم الذي يجئ فيه ابن البشر . يا أحبائي لنحترص علي خلاصنا فها الكتب الإلهية تنذرنا باليوم لنخلص بالتوبة من السخط ونرث الحياة الأبدية إذا عملنا الأعمال المرضية لله فإن لبنت في عصيانك القديم مقيماً في فكر عدم التقوى، فأعلم أنه لا يبطن انتزاعك، لأن صادقاً هو القائل : ها الفأس وضعت عند أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار .

أسمع أيضاً مثل التينة : كان لإنسان شجرة تين في كرمه فجاء يطلب فيها ثمراً فلم يجد فقال لفلاح الكرم ها أن لي ثلاثة سنين منذ صرت أجئ إليها أطلب ثمراً فلا أجد فأقطعها لماذا تبطل الموضوع ؟ فقال : دعها هذه السنة حتى أحفر حولها وأطرح زبلاً فإن صنعة ثمراً وإلا ففيما بعد تقطعها .

فتبصر يا أخي حذراً أن يكون قد كمل زمان الأجل فإنك لا تجد زماناً آخر . هلموا فلنسجد ولنبتك أمام الرب الذي خلقنا، أرفع يديك إليه مع قلبك وتقدم إليه بعبرات هاتفاً مع النبي " سلمني من طين الحمأة لئلا أتورط فيه ونجيني من الذين يمقتونني ومن المياه العميقة، لا يغرقني دوار الماء ولا يبتلعني القعر ولا يفتح الجب عليّ فمه أستجب لي يارب فإن رحمتك صالحة أنظر إلي بكثرة رأفتك

لا تعرض بوجهك عن عبدك ولأنني حزنت أستجب لي سريعاً ، أصغ إلى نفسي وأنقذها من أجل أعدائي نجيني " . لكي يقول هو لك الفصل المكتوب : " تشجع وليتأيد قلبك وأصطبر للرب " .
فنشكر لصلاحه ونقول " صبرت للرب صبراً فأصغى إليّ وأستمع طلبتي وأصعدني من جب الشقاء
ومن طين الحمأة وأقام علي الصفاء قدمي وقوم مناهجي وتوابعه " . تبارك الرب المعطي شعبه قوة وتأيداً
ومبارك إلهنا إلي أباد الدهور. آمين.